Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كذلك يشير القرآن الكريم إلى حقيقة أخرى تتصل بالمشيب ، ألا وهى المشيب قبل الأوان فتشتعل به الرأس حين يتعرض الإنسان للمحن والأهوال فيقول تعالى : «فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً» (المزمل ١٧) .

وإذن فقضية الزمن تنحصر فى الشباب والمشيب والكبر ، شباب سرعان مايولى إذ هو ثوب معار سرعان مايعرى منه المرء ، كما يعرى من الورق القضيب (انظر البيت رقم ١٠٩) ، ومشيب يحيل السواد الذى يصحب الشباب بياضاً ، وكبر يأتى فى أعقاب المشيب .

ولما كان المشيب هو العلامة الظاهرة لهذا التغير فى حياة الإنسان فإن لفظه يستخدم للدلالة على جميع المراحل التى تعقب تولّى الشباب ومن هنا كان المشيب محنة إنسانية يمر بها الناس من كل لون ودين ، ويحسون آثارها فى أنفسهم ، وفيمن يحيط بهم من أهل وأقارب وأحبة . ولذلك نجد أن من وخط المشيب رأسه لايفتأ يتحسر على الشباب ، ويذكر أيامه ، ويتمنى عودته ، ويحسد الشباب على ما يتفجرون به من قوة ؛ كما أنه يكره المشيب ، فهو لا يفتأ يذكره بسوء لأنه يرتبط فى وجدانه وأمورٌ عدة كلها بغيضٌ إلى نفسه : فهو يقطع عليه طريق الاستمتاع بالحياة كما يستمتع بها الشباب ، وهو يفرض عليه قيوداً فى السلوك ، ووقاراً هو أزهد الناس فيه ؛ كذلك فإن المشيب يرتبط فى وعيه وقربُ دنو الأجل فهو يرى فيه نذير المنية .

فإذا كان هذا هو شعور الإنسان العادى فما بالك بالشعراء وهم على ماهم عليه من حس مرهف ، ومن ظمأ إلى الجمال الذى يستلهمون منه أشعارهم ، ذلك الجمال الذى ينفر من المشيب حين يزحف على الرأس ؛ كما يزحف النهار على الليل ! وإن الشاعر ليحزن أشد الحزن وهو يرى مافعله به المشيب من هزء الغوانى وملامتهن ، وصدودهن بعد إقبالهن ، وذهاب المرح من حياته وحلول الترح ، وزحف الأمراض والعلل ، وظهور آيات الكبر ، لذلك كله نجده يمدح الشباب ويكثر من البكاء عليه ، ويذم المشيب ويشكو مافعله به ، ويشكو إعراض الغوانى ويحاول جاهداً إقناعهن بالعدول عن الصدود والملامة ، ويدافع مستبسلاً عن المشيب معدداً محاسنه ومزاياه ، ونجده يتحدث عن الخضاب باعتبار أنه قد يكون حلاً لمشكلة الزمن !

وإن الباحث لتأخذه الدهشة من هذا الفيض من الشعر العربى الذى يتناول الشباب والمشيب : فالشاعر العربى قد يبدأ قصائده بذكر أحدهما أو كليهما ، أو يضمنها أبياتاً تتعلق بالشباب والمشيب وآيات الكبر ، وقلما تخلو قصيدة من ذكر هذا كله ، سواء كان تصريحا أم مجازاً . وقد قال عمرو بن العلاء : «مابكت العرب شيئاً مابكت على الشباب ، ومابلغت به ما يستحقه»